نظرية الجاحظ في الترداد
(رؤية منهجية في تحولات الخطاب)

أ.م.د.حيدر لازم مطلك*

مدخل :

قبل أن نبحث في المفهوم ، وكيفياته وصيغ تشكلاته ، وأبعاده ، لابد أن نبحث في القيمة التأريخية والفنية للنصوص التي اختص بتأليفها الجاحظ ، والتي لها شأن كبير في التنظير للقضايا الأدبية الكبرى ، وطريقة إيرادها في كتابه '' البيان والتبيين '' على وجه التحديد .

فمن بين ما ضم ذلك الكتاب من نصوص شتى ، نجد للجاحظ قطعاً نصية ، كانت تنفلت من زخم الفكر التجريبي الذي عرف به ، ويقيم عليها مدارات الجدل والإفهام ، وتصبح قرارات مستنتجة بالأدلة البيّنة من قضية وأخرى . وقد ترتقي بعض تلك النصوص إلى مصاف النظرية القائمة على التجريب والاستنتاج والكشف ، ولطالما صار بعضها ميدانا للتوظيف المعرفي العام ، أو البحث العلمي في حقل معين ، لمرونتها وجدتها في علوم اللسانية ، وأجناس الأدب ، و التأريخ . فضلا عن أصالتها في تأسيس جانب مهم من نصوص النظرية العربية القديمة في البلاغة والنقد .[١]

والقارئ النافذ ، يجد أن الجاحظ لا يركن إلى منهجية معينة في إيراد نصوصه التي تتداخل وتشتبك مع نصوص متفرقة له ولغيره في كتابه '' البيان والتبيين '' . وإذا ما أطلق نصاً في مسألة مخصوصة ، فقد يسترسل بالشرح أو التعليل ما أمكن له ذلك ، أو يكتفي بذكر الشواهد التي تكون أدلة على ما انطلق منه ، أو يصمت ، ويصبح النص مقتطعاً ، قائما بذاته ، ومنفتحا على قدر وعي القارئ ، ومدى فهمه لذلك النص ، وقدرته على توظيفه في موضوع خاص .

والامتياز الفني الذي تختص به نصوص الجاحظ أنها غالبا ما تكون (إحالية) ، ومختصرة ، إلا في مواضع الجدل ، وسعة العلم بالأشياء ، وما يقتضي إليه إفهام متلقيه من تطويل أو معاودة . ولطالما يفاجئنا بجملة مكتنزة تغني عن صفحات ، أو سطر ممتلئ يثير الجدل حوله ، أو نص اكبر ينوء بشرحه كتاب ، كما هو الحال في نص (الترداد) الذي حَمّلهُ الجاحظ قضية كبرى مستخلصة من جملة الخطاب الأدبي عند العرب ، والخطاب القرآني على وجه الخصوص ، وذلك بأقل كلفة من القول وترك المهمة لقارئيه ليتدبروا أهدافه ومبادئ صياغته في نصوص تلك الخطابات ، وهذا يفسر ما دعوناه (النص الإحالي) . ولنقف عند هذه النقطة الأخيرة لأهميتها في تشكيل الدافع الشخصي لهذا البحث ، وذلك بالتعامل مع المفهوم القديم للترداد تعاملا معاصرا ، وتحويل المعايير التي ينتظم فيها إلى مسرح تطبيقي لنظرية تجد في النص القرآني ما يكفيها تجريبا ووضوحا في الأدلة ، واتساعا في مستويات التحليل وإجراءاته .

ولعل هذه المحاولة في إطارها العام تفتح أفقا آخر لقراءة لمنهجية جديدة لنصوص موروثنا المتراكم ، بما يحقق فهما أعمق لذلك الموروث ومقتضياته ، والانتقال به من النظري الخام إلى التجريبي المنتج .

النص :

قال الجاحظ : '' وجملة القول في الترداد ، انّه ليس فيه حدٌ ينتهي إليه ، ولا يُؤتى على وصفه . وإنّما ذلك على قدر المستمعين ، ومن يحضره من العوامّ والخواصّ . وقد رأينا الله عزّ وجلّ ردّدَ ذكر قصة موسى وهودٍ ، وهارون وشعيب ، وإبراهيم ولوطٍ ، وعادٍ وثمودَ . وكذلك ذكر الجنّة والنّار وأمورٍ كثيرة ؛ لأنّه خاطب جميع الأمم من العرب وأصناف العجم ، وأكثرهم غبيٌّ غافل ، أو معاندٌ مشغولُ الفكر ساهي القلب ''[٢] .

الترداد :

يأتي الترداد، والترديد لغةً بمعنى الرجوع [٣] ، ومنه : المعاودة ، أي الرجوع إلى الأمر الأول[٤] . وقد لا يتكشف هذا المفهوم عن مصطلح متداول إلا بما هو قائم عليه لغويا ، وتماهي محتواه مع مدونات اصطلاحية مقاربة غذتها المناهج النقدية الجديدة بالدلائل والمفاهيم المتطورة ، وهذا ما سنأتي عليه قريبا . ويبدو أن الجاحظ قد استقر لديه مفهوم (الترداد) بحكم انتماء هذا المفهوم للسياق التداولي في عصره[٥] ، وبحكم البشر الذين وظفوه ، وصار يدل عندهم على بلاغة في تأليف الكلام ، وإجرائه على أكثر من أسلوب في إيراد المعنى الواحد وعلى مقتضى الحال[٦] .

ويتبن لنا من خلال الجاحظ أن الترداد كان معهودا لديهم ، وأن الخطباء كانوا على تمكّن منه ، واقتدار لا يشوبه خطل أو عي ، يقول : '' وما سمعنا بأحدٍ من الخطباء ، كان يرى إعادة بعض الألفاظ ، وترداد المعاني عيّاً ''

* قسم اللغة العربية- كلية التربية للبنات – جامعة بغداد.

(٧) . وليس معنى هذا أن الترداد اسلوب خطابي سهل المنال ، إنما يتطلب جهدا لغويا كبيرا في تكرار ، أو تغيير صيغ الخطاب ، ومداراة كافية في التعامل الوظيفي مع المستمعين ، حتى أن عالما ثقة وهو سفيان بن عيينة (ت ١٩٨ هـ) – على ما يذكر الجاحظ – أنّه كان قد روى مما قالوا : '' إعادة الحديث اشد من نقل الصخر '' (٨)

وحقيقةً ، أن الجاحظ قد تجاهل رواية أي أنموذج نصي واضح لما قالته العرب في خطبها ، أو كلامها مما يقع فيه الترداد ، سوى ما ذكر له من علامات دالة عليه في النص القرآني ، وما عدا ذلك فأخبار متفرقة تحكي سبب عناية العرب بهذا الاسلوب من الكلام . وهذه الأخبار – فضلا عن قلتها – لا تعطي للباحث تصورا كافيا ، ليستخلص من خلالها القوانين والأهداف التي كان يتحرك بها ترداد القول أو معاودته على أمر ما ، فهذه المهمة لاتنهض بها تلك النتف القلائل من الأخبار إلا بتشريح أكثر من نص يتجلى فيه الترداد بأوضح أهدافه ، وكأنه أراد أن يقصر الأمر على اختصاص الاسلوب القرآني بهذه الظاهرة وتجلياتها الواضحة في أكثر الأمثلة قوة وتمثيلا لها . وإن كان ما قدمه الجاحظ في رسائله يعطي أمثلة لمثل هذا العمل الإبداعي في صورة وأخرى (٩) ، ونجد من ذلك أيضا في خطب العرب ورسائلها .

والاهم مما تبين لنا ، أن الترداد خطاب ، سواء كان مسموعا أو مقروءا ، هو نوع وظيفي موجه ، غايته تحقيق اكبر قدر ممكن من الفهم لدى المخاطب الذي يشكل محور القصد في هذه العملية التواصلية .

وهذا ما عنى به الجاحظ في مقدمة حديثه عن الترداد ، وتناهي قيمته إذ يقول : '' وجملة القول في الترداد ، انه ليس فيه حد ينتهي إليه ، ولا يؤتى على وصفه ، وإنما ذلك على أقدار المستمعين ومن يحضره من العوام والخواص '' (١٠)

والعرب قد راعوا هذه الملاحظة ، فقد ذكر الجاحظ أن رجلا منهم ، حين كان يتكلم ، ويطلب كيفية سماع كلامه ، فكان يقال له : ما أحسنه ، لولا أنّك تكثر ترداده . قال : '' اردده حتى يفهمه من لا يفهمه '' (١١) فالمتكلم هنا يحاول المضي بقصديته إلى غايتها ، وهي التفهيم المتدّرج والرغبة في استجابة متلقيه .

وتحصيل ما تقدم ، أن الترداد في أوضح مفاهيمه وأهدافه ينبني على ثلاثة معايير متداخلة ، هي : (معيار القصد) وموضوعه أن يؤدي الكلام أو النص الوظيفة التي أراد المؤلف أن يؤديها وهي الفهم . و(معيار التضام) في عناصر الصياغة ، ويشتمل على بلاغة الخطاب في تخيّر القوالب وتسواقها مع الإفهام، ووضوح الدلالة على المعنى ، والإيجاز (١٢) ، ثم (معيار قبول الكلام) أو النص ، ويستجيب هذا المعيار لعوامل لها صلة مباشرة بالمخاطب من مثل نوع الكلام (النص) ، والمقام الثقافي والاجتماعي ، ومرغوبية الأهداف (١٣) . وهذا يعني برأي جابر عصفور : '' أن المقبولية مرتبطة بالسياق ، وبالموقف التواصلي'' (١٤) . إن تظافر هذه المعايير ينبئ بنظرية في الترداد لأنه يخلق مقولاته الخاصة التي تتكرر في صياغات اسلوبية متماسكة بوحدة المعنى .

تبادلات المفهوم : (التحول)

لا يقع التحوّل بديلا اصطلاحيا مجردا للترداد ، إنما يتسع عليه في استكناه التجليات الفكرية والفنية والتأريخية التي لها صلة وثيقة بالظاهرة ، فضلا عن الاتساع في الأشكال والآليات التي تنتظم فيها الأنساق المتحولة ودلالاتها بمستويي اللغة التركيبي والصوتي . وبعبارة أخرى أن التحوّل تجسيد فعلي لكل المفاهيم والمعايير التي يمتلكها الترداد .

ومدارات هذا المفهوم في اللغة والأدب والحياة متعددة ومتباينة في الاتجاه والدلالة . وأوضح معانيه في المعجم ؛ أن : '' كل شيء يتلّون ألواناً هو تَحْوِّل . وتحوّلَ عن الشئ : زال عنه إلى غيره ، ويكون التحوّل تغيّراً ، وكذلك كل مُتحوِّلٍ عن متحوَّله (١٥) . فالمعنى اللغوي للتحوّل يتجه باتجاه الحركة نحو التغير والتبدّل، ويحتمل كذلك معاني : الانحراف ، والتجاوز ، والمعاودة . وفي هذه الحال يكون التحول قابلا للحدوث في أي مجال من الحياة ، وممكن التحقيق (١٦) . ويمكن في هذا المقام ملاحظة مقاربة ما عرف باللغة من مفهوم أساسي للتحول وهو التبدّل والتغير مع ما جاء منه في الاصطلاح الفلسفي (١٧) .

ويتجه مفهوم التحول إلى التماهي في رحاب المدونات الاصطلاحية القديم منها والجديد ، ويكون محورا أساسيا في بنيتها من مثل : الالتفات ، والعدول ، والانزياح ، والتناص . ولقد جرى حديثا تشخيص دلالة هذا المصطلح من خلال الإلمام بحركته في الشعر ، أنّه : '' الانطلاق بالجمل من بنية ثابتة لتحقيق بنيات صغرى شديدة التلاحم والتعقيد ''(١٨) بمعنى أن التحول يشغل المحور التوالدي في النص الشعري (القصيدة) ، ويكون :'' خلقا لوحدات مبدعة من اجل نص جديد ''(١٩) . ولعل هذا يلخص لنا أيضا مفهوم النص بوصفه '' إنتاجية '' بحسب جوليا كريستيفا ، وذلك عندما يتعلق الأمر بحقل إنتاج أو تحولات النص (٢٠) .

وإذا كانت هذه الآراء تنطلق من منهج معين وآخر في تفسير '' مفهوم النص '' والتركيز على خصيصته في إنتاج أو توليد البنى ، فإن ذلك لا يعني تبديل الخطاب بخطاب آخر من خارجه ، ولكنه تكرار بشكل مخالف ، أي تغيّر صيغ الخطاب وهو ما نعبر عنه بتحولات النظم وثبات القيمة (المعنى أو الموضوع) ، ولعل هذا يبتعد كثيرا عن تلك المنطلقات النظرية ، لاسيما ما عُرف بـ '' التوليدية التحويلية '' لجومسكي التي تعتمد

المكوّن اللغوي أساسا في تشكيل أكثر من نظام للجملة [٢١] ، وكذلك '' التحويلية الخطابية '' لتودوروف [٢٢] . ومهما كانت طبيعة هذه المنطلقات فإنها لم تكن جديدة بالقياس للملاحظات التي قدمها عبد القاهر الجرجاني بالاستناد إلى اللغة في معرفة الفروق والوجوه ، إذ عقد لها فصلا في كتابه دلائل الإعجاز سمّاه '' الفروق في الخبر والحال '' [٢٣] . أما ما تتبناه هذه الدراسة ليس الشكل الخارجي الذي تتغير فيه مواقع الألفاظ داخل النسق الجملي وحصولها على صورة وأخرى في تأليف الكلام فحسب ، إنما هناك دلالة مضافة إلى كل تبدّل كلي أو تغيّر جزئي في مكونات (البنية) بوصفها وحدة لغوية ووظيفية قارة بالدلالة وقابلة للتشكيل الموجه أو القصدي وما عدا ذلك فهو من قبيل ذلك الوصف الذي قدمه عبد القاهر الجرجاني إذ يقول : '' والطينة الخالية من التشكيل ، سقطت قيمتها وانحطت رتبتها ''[٢٤] .

تحولات الخطاب القرآني

يشغل التحول أكثر مقولات النص القرآني ترددا ، وهي مشاهد يوم القيامة ، وقصص الأنبياء ، وأمور كثيرة . وهذه الحقائق النصية هي التي استدعت الجاحظ إلى أن يؤسس مشروعه النظري '' الترداد ''، وعلاقته بمستويات تلقي الخطاب .

إن قراءتنا هنا ، هي اكتشاف تطبيقي لعمليات التحول في نماذج نصية منتقاة ومحددة تؤدي بحركتها، وكيفياتها اللغوية والدلالية ما تؤديه البنى السردية بمجملها . ونعني بها تلك البنى التي تروي المشهد الواحد أو الحدث من منظور الهي بطرق مختلفة . أما النسق الثقافي الذي تستند إليه هذه القراءة فهو '' النظام القرآني '' والذي يشكل رؤية منهجية في كليته البيانية والفكرية الشاملة ، ويسمح باتخاذه مبادئ أو أدلة للإنجاز . ويتعين علينا قبل كل شيء ، أن نبحث بقدر معين في خصوصيات هذا النظام الذي من خلاله فقط تتكشف لنا الاتجاهات الوظيفية التي تتحرك على مقتضاها تحولات الخطاب بأهم مستوياتها التركيبية والدلالية .

١. **خصوصية السياق** : الذي تجلى به النص القرآني على العالم ، انه معجزة بيانية لغوية ليس له نظير يشاكله ، ولا يشبه في أي شيء ، أي جنس أو نوع قولي [٢٥] وجاء على حدٍّ من الفصاحة والبيان تعجز عنه قوى البشر [٢٦] ، ثم استمراريته الأصيلة في بقاء معجزته '' لتكون به الحجة قائمة على وجه الدهر ''[٢٧] .

إن النص القرآني بعد أن تخطى مرحلة التكوين والاكتمال ، صار منتجاً للثقافة ، وشكل هيمنة واضحة على مرجعيات التفكير العربي والإسلامي ، وبعبارة أخرى : '' قد أصبح النص الأنموذج الذي تحول إلى محور لكل النصوص الثقافية التي تتحرك في سياقه وفضائه سواء لتدعيم تفوّقه أو لقراءته وتفسيره [٢٨] . وما يزال البرهان به شاهدا و '' تقاس عليه النصوص الأخرى وتُحَدْ به مشروعيتها[١٩] . ونفهم من هذا أن النص القرآني ليس إبداعا اعجازيا في كينونته فقط ، بل هو أيضا فعل في التاريخ ، فعل امتدادي يحمل طابع السيطرة المطلقة على الأفكار الأخرى ، بقدر ما يحمل رؤية ذات نزعة نهائية للعالم تفسره وتغيره ، بينما يحمل النص الأدبي محدوديته في التفسير والتغيير ، وينكفئ على نسبيته الذاتية والتاريخية [٣٠] ، وثمة أمر آخر هو فعل المواجهة الحقيقية مع النفس ، التي يحدثها النص القرآني في الذين امنو به (**تَرَى أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُواْ مِنَ الْحَقِّ**) المائدة (٨٣) ، لأنه يحقق مقبولية عالية ويمتلك حضورا فاعلا لحظة سماعه أو قراءته وهو الحضور الإلهي في النص ، خلافا لكل النصوص الأخرى التي يكون تأثيرها نسبيا ، ويغيب فيها الوعي عن المؤلف ، وتبقى السطور أمام النواظر زخارف شتى تتحدث عن أفكار مهجنة من هذا وذاك .

٢. **عمومية القصد** : ومجاله توجيه النص القرآني إلى الغرض أو الغاية من رسالته . وهذا التوجيه هو المحور الرئيس الذي يقوم عليه الإبلاغ ، وتنتظم بإرادته أساليب الكلام وعلى مقتضى أحوال المتلقين * .

وفي إطار هذا المحور فقط ، كان الجاحظ أول من حدد عامل القصد في تحولات الخطاب ، إذ قال : '' لأنه خاطب جميع الأمم من العرب ، وأصناف العجم وأكثرهم غبي غافل ، أو معاند مشغول الفكر ساهي القلب '' [٣١] . وعبارة '' أكثرهم غبي غافل '' تأتي إشارة إلى قوله تعالى : **(وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ عَنْ آيَاتِنَا لَغَافِلُونَ)** يونس (٩٢) والى قوله أيضا **(يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الاخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ)** الروم (٧) وفي النهاية : **(وَلَـئِكَ كَالأنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أ وْلَـئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ)** الأعراف (١٧٩) . ولمثل هؤلاء يمضي فيهم الخطاب إلى غايته من التذكير والتكرار والتوكيد . أما '' ساهي القلب '' عن أداء العبادة أو الفرائض ، و'' المعاند مشغول الفكر بالصد عن الحق ، فمنزلتهم من الضلالة واحدة ، ولمثل هؤلاء تحمل لغة الخطاب إنذارا ، ويصبح التحول احتجاجا وجدلا .

وفي البعد التاريخي ، واجهت رسالة نبينا محمد (ﷺ) رفضا وتكذيبا في الواقع الذي شهد النبوة وأدرك النزول ، استكمالا لذلك الرفض والتكذيب الذي واجهته الرسالات السماوية من قبل ، وبوطأة اشد ، مما تتطلب جهدا نبويا عظيما في الإبلاغ ، وتبلغ ذروة ذلك الجهد في قوله تعالى مخاطبا نبيه (ﷺ) : **(وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ أَفَأَنتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ وَلَوْ كَانُواْ لاَ يَعْقِلُونَ)** إلى قوله تعالى : **(وَمِنهُم مَّن يَنظُرُ إِلَيْكَ أَفَأَنتَ تَهْدِي الْعُمْيَ وَلَوْ كَانُواْ لاَ يُبْصِرُ ونَ)** يونس (٤٢ – ٤٣) . يقول الزمخشري : '' يعني ؛ أنهم في اليأس من أن يقبلوا أو يُصدِّقوا ، كالصم والعمي الذين لا بصائر لهم ولا عقول [٣٢] .

وخلاصة الأمر لقد جاء النص القرآني حوارا مع العالم بقصد اختباره وتغييره ، ويرتكز هذا الحوار في جانب واسع منه ، ارتكازا مؤكدا على تحولات الخطاب التي ما هي إلا قياس متدرج لطاقة الإنسان على استيعاب إرادة ذلك الخطاب والتوافق معه [٣٣] .

٣. **بنية النص القرآني** : لم تقدم لنا الأدبيات ما يكفي الوصف العلمي عمقا ووضوحا للكيفية التي جاء عليها المعمار القرآني ، وطرائق رصفه ، حتى اهتدينا بعد طول التدبر الى أن هذا التكوين اللغوي البياني الشامل ذو بناء نسقي مركب ، ومتحرك ، لا يركن إلى طريقة في الأداء ثابتة ، إنما نجده يعيد باستمرار توزيع نصوصه ، أو خلقها ودمجها في وحدة موضوعية تمثل مركز دلالة النص (العقيدة الإسلامية) .

وإذا كان علماء النقد القديم قد اهتموا كثيرا بالبناء التقليدي للشعر وتمفصلاته وأجزائه على مستوى التنظير أو الممارسة النقدية [٣٤] ، فان ذلك لا يستقيم بجملته على بنية النص القرآني ، ولا يصح فيه توظيف مصطلحات السياق الشعري ، ولا أية مقاربة اصطلاحية ، أو مقايسة مكوناته المعلومة (السورة ، والآية ، والفاصلة) بعناصر أو مكونات أي جنس أدبي آخر ، لاختلاف طبيعة النص القرآني وتفرده بخصوصية بنيته عن طبيعة الشعر بخاصة ، لأن المقايسة لا تكون إلا بتقدير شيء على مثاله ، ويوازيه في الكيفية والجنس والمصدر ، ثم أن أي مصطلح في سياق استعماله لا يتعلق إلا بحقل مخصوص ونص معلوم ويصير لازما ومستقرا ، ولا يجوز نقله إلى حقل غير حقله [٣٥] ، إلا من باب التجوّز أو التعسف .

البناء الموضوعي المتعدد (السورة)

تمثل السورة اكبر تشكيل لغوي في النص القرآني ، وتضم مجموعة بنى مركبة ، وليست بنية واحدة ، وكل بنية مركبة تستقل بمجموعة من الآيات وتؤلف نسقا موضوعيا بالغ الانتظام والترابط الوظيفي والدلالي . بمعنى ؛ أن هناك بناءات موضوعية متعددة داخل السورة الواحدة ، التي تبدأ بمعنى ثم تمتد امتدادا دائريا وتعود إليه مرة أخرى [٣٦] ، وهذا المعنى هو مركز " دلالة النص " وبعبارة أدق ؛ المعنى الذي صدع به النبي محمد ﷺ ، وعمَّ الناس جميعا ، وهو أن لا تعبدوا إلا الله وحده .

إن هذا الاستنتاج النصي يعطي رؤية أكثر وضوحا ، في مثل (سورة الفجر) :

بـ سْم اللّه الرَّحْمَن الرَّحـ يم

وَالْفَجْرِ (١) وَلَيَالٍ عَشْرٍ (٢)وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ (٣) وَاللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ (٤) هَلْ فِي ذَلِكَ قَسَمٌ لِّذِي حِجْرٍ (٥)

بنية مركبة - نسق (١)

الاستدلال بالظواهر الكونية لتحريك العقل

أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ (٦) إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ (٧) الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلادِ (٨) وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ (٩)وَفِرْعَوْنَ ذِي الا وْتَادِ (١٠) الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلادِ (١١)فَأَكْثَرُ وا فِيهَا الْفَسَادَ (١٢) فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ (١٣) إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ (١٤)

بنية مركبة – نسق (٢)

تمثلات قصصية مستعادة بالتحول من تفاصيل سردية كاملة في سور أُخر

فَأَمَّا الإِنسَانُ إِذَا مَا ابْتَلاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ (١٥) وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ (١٦) كَلا بَل لا تُكْرِمُونَ الْيَتِيمَ (١٧) وَلا تَحَاضُّونَ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ (١٨) وَتَأْكُلُونَ التُّرَاثَ أَكْلا لَّمًّا (١٩) وَتُحِبُّونَ الْمَالَ حُبًّا جَمًّا (٢٠)

بنية مركبة – نسق (٣)

علاقة الإنسان بالخالق وممارسات الناس في الحياة

كَلا إِذَا دُكَّتِ الارْضُ دَكًّا دَكًّا (٢١)وَجَاء رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا (٢٢) وَجِيءَ يَوْمَئِذٍ بِجَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ الانسَانُ وَأَنَّى لَهُ الذِّكْرَى (٢٣) يَقُولُ يَا لَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي (٢٤) فَيَوْمَئِذٍ لا يُعَذِّبُ عَذَابَهُ أَحَدٌ (٢٥) وَلا يُوثِقُ وَثَاقَهُ أَحَدٌ (٢٦)

بنية مركبة – نسق (٤)

مشاهد القيامة (الأرض / الغيب) وحال الإنسان الكافر

يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ (٢٧) ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً (٢٨) فَادْخُلِي فِي عِبَادِي (٢٩) وَادْخُلِي جَنَّتِي (٣٠)

بنية مركبة – نسق (٥)
مشهد القيامة (الجنة) الخطاب للنفس المؤمنة

فان لاحظنا هذه البنى المركبة بمجمل آياتها الثلاثين لغويا '' نجد أن نصا واحدا يمضي باتجاه واحد ، تجمعه وحدة موضوع [٣٧] . ويمكن أن نلاحظ أيضا أن بنية اللغة مرتبطة ببنية الموضوع ، إذ لا يمكن الفصل بينهما [٣٨] ، وان بنية الموضوع مرتبطة بالتغييرات اللغوية ، أو التحولات التي نجدها مستمرة في أكثر من سورة واحدة ، هذه الحركة الدائبة في تحولات الخطاب بمستوى اللغة والموضوع تجعلنا نقرأ في النص الواحد أكثر من نص ، حتى ولو كان النص صغيرا بحجم (آية) ، فكثيرا ما نقرأ آية تختزل في لغتها تفاصيل بنية كبرى (قصة أو حدث القيامة) ، أو توحي بها وتثيرها ، وتصير بديلا معنويا (للنص الغائب)، أو استرجاعا تكميليا موجزا ، أو إضافة جديدة إلى البنية السابقة ، وبحسب المقام ، وتدفع بالقارئ إلى المتابعة والتواصل .
هذه الرؤية في التحول بمستوى الآية – وهي اصغر وحدة لغوية – فصاعدا هي ما نعتمده في أمثلة اجرائتنا التحليلية ، وبالحدود المقررة للبحث .

التطبيقات :

إن عنصرا ما – أو أكثر – ضمن الوصف السردي للمشهد يقع لا محالة مرة أخرى ، أو أن يتكرر لفظيا أو معنويا مرة أو مرات في البنى التي تتبادل التعبير عن المضمون الواحد بزيادة أو إيجاز . أما الذي ينوّع هذا التتابع من بنية إلى أخرى ؛ فثلاثة عناصر : **الشكل ، والوظيفة ، والدلالة المضافة** .
إن عمليات التحوّل تكاد تجري كلها على قاعدة (الاستبدال) ، وعلى مدار الاستبدال يكون هناك فيض دلالي مستمر ، أو تعويض أسلوب بأسلوب آخر يرسخ مفهوما محددا في ذهن المستمع أو القارئ ، أو ينفتح على أكثر من قراءة وتأويل .
يرتبط الاستبدال بالمقام الذي يتطلب ذلك ، ويقوم باستيعاب الكم الدلالي الجم المعبر عن مقاصد الخطاب القرآني عن طريق التنويع اللغوي (التحوّل في عناصر التركيب) ، وبذلك تتحقق غايتان اسلوبيتان ، أولاهما : نقل الأفكار وتوكيدها ضمن الموضوع الواحد ، وثانيهما : التأثير في نفوس المستمعين لتقرير قاعدة فكرية أصيلة وثابتة في وجه التطور ، وتغاير الثقافات ، وتطاول الأزمان ، وتجدد الحاجات .
يقوم التغيير في تركيب الألفاظ داخل النسق الجملي على تبادلات المعنى الواحد ، إذ تنتقل به تلك التراكيب من صورة إلى أخرى ، بعد أن تشبعه بمعانٍ نفسية ، وقيمية ورموز وأخيلة ،'' و كأنها قد جسّمت حتى رأتها العيون '' [٣٩] مثال قوله تعالى :

- (**الْقَارِعَةُ * مَا الْقَارِعَةُ * وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْقَارِعَةُ**) القارعة (١ – ٣)
- (**الْحَاقَّةُ * مَا الْحَاقَّةُ * وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحَاقَّةُ**) الحاقة (١ – ٣)

تشير لفظتا (القارعة) و (الحاقة) والمعاني المستخلصة منهما إلى وحدة تكامل المشهد '' يوم القيامة '' ، وسياق الاستفهام في الجملة الخبرية لكلا البنيتين جاء : '' تفخيما لشانها وتعظيما لهولها '' [٤٠] ، إلا أن الغاية من التبدّل في ألفاظ الصياغة في البنيتين الأولى والثانية ، هي تفريق الدلالة ، فـ(القارعة) تجسّم المشهد من (الخارج) انهيار الكون بالسماء والأرض ، وما يكون عليه الناس أحياء وأموات من نشور وجمع . يدل على ذلك تتمتها : (**يَوْمَ يَكُونُ النَّاسُ كَالْفَرَاشِ الْمَبْثُوثِ * وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ الْمَنفُوشِ**) القارعة (٤ – ٥) . أما (الحاقة) فتتجه بدلالتها إلى (الداخل) ، أي : إلى تمثيل ما تكنّه النفوس يومئذ في دواخلها من خوف مفزع واضطراب ، وخشوع لميزان الحق في مصيرها من العقاب أو الثواب ، إذ : (**يُنَبَّأُ الإِنسَانُ يَوْمَئِذٍ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ**) القيامة (١٣) .
ونقف عند هذه النقطة لنتابع نماذج من كيفيات لغوية مستبدلة من المفهوم الكلي والشامل للحاقة ، ومؤسَّسة في مجملها على (دلالة الداخل) . ونبدأ بأصغر نص هو من الإيجاز في احتواء تلك الدلالة ، ما يكون بنية ضابطة أو (نسقا أساسيا) تجري عليه تحولات الخطاب ؛ قال تعالى :

١- (**يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ**) الطارق (٩) .
٢- (**وَعَنَتِ الْوُجُوهُ لِلْحَيِّ الْقَيُّومِ وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا**) طه (١١١) .
٣- (**هَذَا يَوْمُ لا يَنطِقُونَ * وَلا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ**) المرسلات (٣٥ – ٣٦) .
٤- (**بَلِ الإِنسَانُ عَلَى نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ * وَلَوْ أَلْقَى مَعَاذِيرَهُ**) القيامة (١٤ – ١٥) .
٥- (**يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ الْجَمْعِ ذَلِكَ يَوْمُ التَّغَابُنِ**) التغابن من (٩) .

هذه البنى الخمس انبنت على ثلاثة اتجهات اسلوبية ، الاستبدال من (الحاقة) ، وسعة (دلالة الداخل) ، والوظيفة (التفسيرية) . بدأت البنية الأولى : (يوم تبلى السرائر) بالظرف المبهم (يوم) ، وهو سياق نجده باستمرار يؤكد استباق يوم غير معلوم لكنه واقع لا ريب في ذلك ، إذ تختبر القلوب بما كانت تخبئ من أسرار ،

وهي الأعمال في الدنيا . وتشخص البنية الثانية الدلالة النفسية بما تكون عليه الوجوه من العناء والذل في عبارة (عنت الوجوه للحي القيوم) ، وهو من المجاز العقلي بإسناد العناء للوجوه ، أما عبارة (وقد خاب من حمل ظلما) فتكثف الاستشعار بالذنوب في ذلك الموقف العظيم . وتأتي البنية الثالثة استبدالا تكميليا آخر في تشخيص حال الكافرين في عجزهم عن النطق ، واستلابهم إرادة الاعتذار . فهذه البنى تحاكي اضطراب النفس وفزعها من الداخل ، حتى البنية الرابعة التي تحسم هذه الرؤية وتمثل دلالة الفزع النفسي الأكبر حين تؤكد أن الإنسان يومئذ يكون شاهدا على نفسه بجوارحه كلها ، وهي بهذا تصبح إيجازا متحولا أيضا من بيان آخر في قوله تعالى :

وَكُلَّ إِنسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَآئِرَهُ فِي عُنُقِهِ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنشُورًا * اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا) الإسراء (١٣ – ١٤)

نلاحظ أن الخطاب الإلهي في البنية الخامسة جاء خصيصا للكافرين ، وهو جواب مرتبط بمقام ما قبله : **(زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَن لَّن يُبْعَثُوا قُلْ بَلَى وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ وَذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ)** التغابن (٧) . لذلك تكرر لفظ اليوم في تلك البنية الخامسة حصرا بعذاب هؤلاء بدلالة ضمير المخاطبين في (يجمعكم ليوم الجمع ذلك يوم التغابن) . ويوم الجمع يستبدل من داخل هذه البنية بيوم (**التغابن**) لتكتمل الرؤية في تشخيص حال الكافرين من الداخل والخارج إذ يكون الناس فيه بين شقي وسعيد . ونرى الصيغة تعيد نفسها في سورة مريم وبالدلالة ذاتها إذ هو **(يوم الحسرة)** مريم (٣٩) .

وهناك بعض النصوص التي تحقق تبادلات التصوير البياني لمشهد (يوم التغابن) ، على اتساع في الدلالة ، وعمق التمثيل لصراع النفس الشقية وتحرقها ندما وحسرة ، في مقابل سعادة النفس المطمئنة ، من مثل قوله تعالى :

١- (**وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّؤُوا مِنَّا كَذَلِكَ يُرِيهِمُ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُم بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ**) البقرة(١٦٩) .

٢- **(إِنَّا أَنذَرْنَاكُمْ عَذَابًا قَرِيبًا يَوْمَ يَنظُرُ الْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ وَيَقُولُ الْكَافِرُ يَا لَيْتَنِي كُنتُ تُرَابًا**) النبأ (٤٠) .

٣- (**وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلا**) الفرقان (٢٧) .

وتأتي أيضا على التقابل المتضاد :

٤- **(وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ * ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ ۞ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ * تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ ۞ وْلَئِكَ هُمُ الْكَفَرَةُ الْفَجَرَةُ**) عبس (٣٨ – ٤٢) .

يتعين علينا أن ننظر إلى كل واحدة من هذه البنى على أنها قد سيقت ضمن مقام خاص داخل هذه السورة أو تلك . إلا أنها في النهاية ترتبط بعلاقات مع مجموع البنى وتمتد معها امتدادا دلاليا مطردا ، وهو ما يمكن أن نسميه " التعالق الدلالي " ، ذلك أن مثل هذه البنى بمجموعها تدور حول محور فكري مهيمن ، وتؤدي وظائفها المركبة على وفق إرادة ذلك المحور ، في لغة تخترق قناعات العقول وتغيرها ، حتى ترى البعيد الغيبي قريبا وواقعا ، وكل ذلك يجري على غير المعتاد من التشخيص الذي يرينا كيف تتراسل الحواس في قوله تعالى : (كذلك يريهم الله أعمالهم حسرات) ، أو مجاراة للعرب في كلامها مثل هذه الكناية : (يوم يعض الظالم على يديه) ، أو عن ذلك الوصف السردي الذي شخص لنا بإتقان لوائح (الوجوه النضرة) ، ويميزها على التضاد من تلك الوجوه التي : (عليها غبرة ، ترهقها قترة) .

إن هذا التنوع البياني في أساليب الخطاب ، هو الميدان الحقيقي لإنتاج الدلالة وتساميها . " وفي هذا ما يحيّر العديد من فلاسفة اللغة ، الذين يتساءلون عن سر توليد الدلالة ، وكيف أن اللغة تكشف وتخفي في الآن نفسه " (٤١) .

ونجد من ذلك ما جاء في إيضاح الخطيب القزويني ، أن الجملة القرآنية التي تحمل معنى الشرط ، حين يقف عندها الكلام بلا جواب ، تعطي من الدلالة على المشهد : " انه شيء لا يحيط به الوصف ، أو لتذهب نفس السامع كل مذهب ممكن فلا يتصور مطلوبا أو مكروها ألا يجوز أن يكون الأمر أعظم منه ، ولو عُيّن شيء اقتصر عليه وربما خفّ أمره عنده " (٤٢) ، وكانت أمثلته من قوله تعالى :

- **(وَلَوْ تَرَى إِذْ وُقِفُوا عَلَى النَّارِ**) الأنعام من (٢٧) .
- **(وَلَوْ تَرَى إِذْ وُقِفُوا عَلَى رَبِّهِمْ**) الأنعام من (٣٠) .
- **(وَلَوْ تَرَى إِذِ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُو رُؤُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ**) السجدة من (٥) .

فهناك علاقة حضور وغياب بوجود نص غائب هو (جواب الشرط) الذي أضمرته تلك البنى ليعطي من الدلالة على شدة ذلك الموقف وفظاعة شانه ما يبهت الواصف معه حتى لا يحير ببنت شفه (٤٣) .

البديل التفسيري :

لمّا كان وقوع المشهد في صورة مفاجئة ، ولا يمكن أن يحيط به العقل البشري الحسي من بلاغ واحد ، كانت هناك سلسلة متتابعة من تحولات الخطاب تتناوب على الوصف التدريجي لأحداث المشهد بصيغ مختلفة ،

وتقوم على مقاربات الصورة ، والتفسير . وهذا البعد الوظيفي كان الزجاج (ت ٣١١ هـ) ، قد أشار إليه على جهة السياق النحوي ، أن بنية المشهد تكون بديل بنية أخرى بالمجاورة أو غيرها لأغراض التفسير أو الجواب [٤٤] . بمعنى أن التحولات هي في حقيقتها " بدائل ومتغيرات " [٤٥] ، تستكمل الواحدة اثر الأخرى تفسير المشهد أو أي حدث منه لغرض إبانته على وجوه من التركيب . ونجد أمثلتها في (مشهد السماء) ، قوله تعالى :

١ - (**إذا السَّمَاء انشَقَّتْ ۞ وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ**) الانشقاق (١- ٢) .

البدائل التفسيرية :

٢ **وَيَوْمَ تَشَقَّقُ السَّمَاء بِالْغَمَامِ وَنُزِّلَ الْمَلَائِكَةُ تَنزِيلا**) (الفرقان (٢٥) .

٣ - (**وَانشَقَّتِ السَّمَاء فَهِيَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ**) الحاقة (١٦) .

٤ - **فَإِذَا انشَقَّتِ السَّمَاء فَكَانَتْ وَرْدَةً كَالدِّهَانِ**) الرحمن (٣٧) .

شكّلت هذه البنى (شبيها مغايرا) ، وهو الذي ينتج من تكرار بعض العناصر المتشابهة على الرغم من الحذف أو الزيادة . وقد حافظت جميعها على استمراريتها في تصوير مشهد السماء لحظة قيام الساعة ، وتوجيه صيغ الخطاب إلى توكيد المفاجئة بالحدث ثم تتابعت على تفسيره ، والانتقال به من العموم إلى الخصوص ، أو بالأحرى من (الحسي) إلى (الغيبي) ، وهو مكمن سياسة الخطاب القرآني في عملية الإبلاغ ، فمن الدلالة المباشرة للفعل (انشقت) في البنية الأولى ، تأتي البنية الثانية لتوضح عظمة الانشقاق بالغمام ونزول الملائكة مما يسبغ على الموقف حالة من الرهبة والوجوم ، وتحمل لفظة (واهية) في البنية الثالثة تفسيرا للجملة الفعلية (انشقت السماء) وتوكيدا لها على سبيل الاستعارة من قولهم : وَهَيَ السقاءُ وهياً تخرّق وانشق " [٤٦] . أما البنية الرابعة فقد ألفت صورة تشبيهية مثيرة للعقل في مقاربة الغيبي من الحسي بطريقة التجريد ، إذ تغدو السماء يومئذ حمراء كهيئة الورد لونا ، في فورة زيت ، أو أديم احمر[٤٧] . وظواهر السياق في هذه البنى يؤكد حضور الفاعل الحقيقي وهو الخالق العظيم الذي تنشق بإذنه السماء وينقلب الكون بانقلابها .

ويحيلنا الفعل (انشقت) على الملاحظات التي قدمها عبد القاهر الجرجاني بخصوص اللفظة الواحدة إذا تكررت ، واختلفت مواقعها من النظم ، فإنها تعطينا في كل مرة دلالة جديدة ، وقد شبهها الجرجاني بالصدفة الواحدة التي تخرج منها عدة من الدرر ، كما شبهها بالغصن الواحد الذي نجني منه أنواعا من الثمر[٤٨] . فالفعل انشقت في الجمل السابقة تكرر كثيرا واختلفت مواقعه فمرة كان خبرا لجملة اسمية ومرة أخرى وقع مضارعا مبنيا للمجهول وابتدأ به في جملة أخرى وأخيرا حمل لنا الفعل نفسه معنى الشرط في الجملة الأخيرة وفي كل مرة كانت له دلالة معينة . وسنكتفي بتوضيح هذه العلاقة من خلال المثال الأتي في قوله تعالى :

- (يَوْمَ **تَمُورُ** السَّمَاء مَوْرًا) الطور (٩) .
- **أَأَمِنتُم مَّن فِي السَّمَاء** أن يَخْسِفَ بِكُمُ الأَرْضَ فَإِذَا هِيَ **تَمُورُ**) الملك (١٦) .

فالفعل (تمور) المتقدم يؤدي دلالة التمُوّج في اضطراب السماء ، وهو تعويض دلالي جديد لفعل الانشقاق السابق . بينما نجد الفعل (تمور) نفسه وقع متأخرا في النسق الثاني ، وجاء مخصوصا بتشخيص حركة اضطراب الأرض ورجّها من الأسفل إلى الأعلى ، وبدائله التفسيرية تتمثل كثيرا في نصوص (مشهد الأرض) آلاتي ، قال تعالى :

١- **إِذَا زُلْزِلَتِ الارْضُ زِلْزَالَهَا * وَأَخْرَجَتِ الارْضُ أَثْقَالَهَا**) الزلزلة (١ – ٢) .

البدائل التفسيرية :

٢- (**وَإِذَا الارْضُ مُدَّتْ ۞ وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ**) الانشقاق (٣ – ٤) .

٣- (**يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ * تَتْبَعُهَا الرَّادِفَةُ**) النازعات (٦ – ٧) .

٤- **يَوْمَ تَرْجُفُ الارْضُ وَالْجِبَالُ وَكَانَتِ الْجِبَالُ كَثِيبًا مَّهِيلا**) المزمل (١٤) .

٥- (**إِذَا رُجَّتِ الارْضُ رَجًّا * وَبُسَّتِ الْجِبَالُ بَسًّا**) الواقعة (٤ – ٥) .

٦- **وَحُمِلَتِ الارْضُ وَالْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَاحِدَةً**) الحاقة (١٤) .

٧- (**كَلا إِذَا دُكَّتِ الارْضُ دَكًّا دَكًّا**) الفجر (٢١) .

هذه البنى من الأولى حتى السابعة تروي ما سيقع مرة واحدة (زلزلت الأرض) ونلاحظ أن شدة الحدث تتصاعد باطراد ، ويتساوق معها تصاعديا أيضا قوة الإيقاع الصوتي المتتابع الذي يثير السمع وكأننا نحس باضطراب هائل مثّلته الأفعال ومؤكداتها : (زلزلت - زلزالها) ، و (مدّت - وتخلّت) ، و (رجّت - رجّا) ، و (دكت - دكة) ، و (دكا - دكا) ، وهي بهذا تحاكي الحدث صوتيا بسبب من طبيعة حروفها التي تأتلف في هذه الأفعال والمؤكدات ، أي لما تكون عليه (صفير ، وهمس ، وشدة ، وانحراف ، وقلقلة ، وتكرار ، واستعلاء ، وانفتاح) .

وبقدر ما تفاجئ هذه البنى العقل باستباق أمر غيبي يأتي بغتة ، فإنها قد تدرجت في تفسير حدث (الزلزلة) ، والانتقال بدلالته من موقع وآخر بطرق مختلفة من التركيب أو التغيير في الصيغ اللفظية داخل الآيات ، ووضعته موضع التوقع اليقيني بعد أن أسبغت عليه سلسلة من المضامين الجديدة ، وغذت كيفية وقوعه

بالحركة والصوت . إن تكرار الحدث بهذا الشكل التحويلي في عناصر النظم لم يكن موجها لغرض التفسير فحسب ، وإنما هناك قيمة احتجاجية تلزم المستمع / القارئ أن يمتثل لهذا الزخم من التذكير ، فضلا عن أن تلك الشواهد تكون أيسر تحصيلا للإدراك وأكثر استدعاءً للتوقع والاستجابة للخطاب أو التوافق معه . ذكر الزركشي : '' أن الكلام إذا تكرر استقر '' (٤٩) .

السياق اللساني : (الوظيفة النحوية)

يحدد لنا السياق اللساني (على المستوى التركيبي النحوي) الاتجاه الوظيفي في تحولات الخطاب من خلال كيفية تعامل النصوص المتحوّلة مع (البنية التوكيدية) ، وصولا إلى الأثر النفسي المراد تحقيقه في المتلقي . وهذا من باب ما دل عليه عبد القادر الجرجاني ، إذ يرى أن النظم وضع يقتضيه علم النحو وقوانينه وأصوله ، ويتطلب معرفة مناهجه في الاختيار والتغيير (٥٠) .

قال تعالى :

١- (**يَوْمَ تَشَقَّقُ الأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعًا ذَلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ**) ق (٤٤) .

٢- **فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ فَإِذَا هُمْ يَنْظُرُونَ**) الصافات (١٩) .

٣- **إِنْ كَانَتْ إِلاَّ صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَدَيْنَا مُحْضَرُونَ**) يس (٥٣) .

نرى أن البنية الأولى قامت على طرفين متوازيين هما : (التشقق) التدريجي للأرض في معناه الحسي ، و (الحشر) في بعده الغيبي . وقد تماثل هذان الطرفان في علاقة دلالية تؤكد وقوع الحدث من الفعل المبني للمجهول (تشقق) ، إيذاناً بخروج الناس من الأرض ،ومن اسم الإشارة (ذلك) ، ومن تقديم شبه الجملة الجار والمجرور (علينا) ، التي دلت على الاختصاص وتوكيد قدرة الله وحده على إعادة الخلق من جديد ، بمعنى أن هذا الأمر لا يتيسر إلا لله سبحانه .

ونجد سلسلة من عناصر التوكيد قد انتظمت على وجه آخر من التأليف والترتيب في البنية الثانية . ففي قوله ؛ (فإنّما) المتكونة من إنّ إفادة لمعنى التوكيد القائم على الحصر ، أي معنى توكيد وقوع الحدث وهو البعث وحصره في جملة (هي زجرة) التي ضاعفت التوكيد بمصدر المرة (واحدة) . أما (إذا) الفجائية فأفادت معنى تقريب الزمن من الحال ، وأدى اقترانها بفاء التعقيب إلى توكيد معنى المباغتة في وقوع الحدث، باستلزام آني بين بوق الزجرة المهينة إلى عودتهم إلى الحياة ، مع عودة النظر أليهم، بعد أن كانوا قد ماتوا وفقدوا الحواس . وأما الضمير (هم) في : (فإذا هم ينظرون) فادى معنى توكيد الحدث ، وهو خروج الكفار ووقوفهم بين يدي ربهم يوم القيامة .

وإذا كانت البنية الأولى قائمة على سرد كيفية الخروج ، أو حالة التشقق والحشر يأتي هذا النص ليكون كتلة توكيدية ذات إيقاع مطرد ، يبدأ من إثبات وقوع الحدث وصولا إلى إثبات مَن سيقع عليهم الحدث نفسه ، وهذا الإثبات المؤكد يسير بشكل مستقيم يبدأ من الأسفل إلى الأعلى ، ويستكمل برهانه في النص اللاحق الذي تمثله البنية الثالثة ، وعلى وجه آخر :

إذ يبرز التوكيد بداية في أسلوب الحصر : (إن كانت إلا صيحة) ، ثم تتصاعد المؤكدات بشكل تراتبي من مصدر المرة (واحدة) ، و (فإذا) الفجائية المقترنة بفاء التعقيب ، ثم لفظة (جميع) التي أكدت حضور جل المكذبين يومئذ ، وأخيرا الجملة الظرفية (لدينا) التي جاءت متوسطة بين الضمير (هم) ومتعلقه الأخير (محضرون) فعمل هذا المتوسط على تحويل مجرى الأحداث إلى صانعها ، وردّها إلى محدثها .

وخلاصة الأمر : أن الأثر النفسي يزداد كلما ازداد عدد المؤكدات التي تمارس ضغطا متدرجا على فهم المتلقي ، إيحاءً بثبوت قوة الموضوع المراد الحديث عنه . وهذا كله يصب في ثنائية جعلها القران الكريم الأساس الذي يفسر من خلالها حقيقة البعث والحياة الآخرة ، وهي ثنائية (المألوف / الغريب) ، إذ يتدرج الخطاب مما هو مألوف (حسي) ، ويرتقي به إلى (العقل) وصولا إلى تحقيق اليقين بما هو غير مدرك (غيبي) . ومن هذا فقط يتكشف لنا سر جدلية تحول الخطاب تركيبيا ودلاليا ، انه يقدم للعالم دائما أجوبة جديدة لترسيخ قاعدة الأيمان ، ولمواجهة مثل هذه الأسئلة المتكررة خلال عصور الرسالات كلها : (**وَيَقُولُ الإِنسَانُ أَئِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا**) مريم (٦٦) **وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَئِذَا كُنَّا تُرَابًا وَآبَاؤُنَا أَئِنَّا لَمُخْرَجُونَ**) النمل (٦٧) .

تحولات القص القرآني :

١- التمثلات .

تشكل نصوص القص القرآني وجها آخر للتحوّل ، وتتطلب قراءة أخرى في تواصلها ، وحركة بنائها المتغيّر والمتعدد . وإجمالا أن النص القصصي – هنا – نص متحرك ، ومتفرد بتحكمه الذاتي ، ويكون مستقلا ومندمجا بموضوعات غيره في آن واحد . وهو نص يمتلك سعة حضور وانتشار في الفضاء القرآني، من خلال تعدد وجوه السرد والأبعاد والتواصل ، كما يمتلك قدرة على استرجاع الأحداث ، أو تفريقها ، أو إعادة تشكيلها

وترتيبها من جديد ، أو تجميعها باقتصاد في بنية نسقية مركبة ، ضمن مجال سورة وأخرى بما يتناسب مع الموضوع ويتوافق مع السياق .

ومن خلال هذه الخصائص ، نرى أن النص القصصي القرآني يعلن عن تحولاته بنفسه ، وهذا ما يسّهل علينا تحصيل مجموعة الإجراءات والأهداف التي تأخذ من هذه الظاهرة لاسيما – على وجه التحديد – الوظائف .

وقبل كل شيء ، كان الجاحظ قد عدّد أمثلة من طائفة القصص التي ترددت في النص القرآني ؛ إذ قال : '' وقد رأينا الله عز وجل قد ردد قصة موسى وهود ، وهارون وشعيب ، وإبراهيم ولوط ، وعاد وثمود '' (٥١) . وعلى الرغم من أن الجاحظ قد أهمل ذكر تردد قصة ادم ، ونوح ، وعيسى وغيرهم ، إلاّ أنه في النهاية قدم ملاحظة قيمة في وظيفة هذا التردد وهي مراعاة اختلاف مستويات الفهم .

ونرى أن الخطاب المنزّل قائم على تعدد الوظائف ، لاسيما في مجال القص ، وهذا ما يدل عليه قوله تعالى **وَكُلاًّ نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَاء الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ وَجَاءكَ فِي هَذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ**) هود (١٢٠) .

يتكشف لنا من سياق هذه الآية البعد الوظيفي الخاص بأنباء الرسل ، وهو تطمين النبي محمد (ﷺ) ، ويزداد هذا التطمين قوة في قوله : (وجاءك في هذه الحق) دلالة على واقعية القص ومصداقيته ، ثم يتسع هذا البعد الوظيفي الخاص ويتعدد ويصير عالميا في الوعظ والتذكير .

البنية الاستبدالية (قصة صالح) :

من الحقائق التي لا يمكن تجاوزها ، أن القص القرآني هو سرد من منظور الهي ويكتفي بانتظامه الذاتي ، وان بنية القصة الواحدة التي يجري التعامل معها في هذا المحور هي بنية استبدالية : '' وتتمثل في قدرتها على تحويل النسق الأساسي كليا أو جزءا منه إلى تشكيلات جديدة دالة '' (٥٢) .

فالبنية الاستبدالية التي تشتمل على فكرة التحول في مجال القص تمضي إلى نهايتها في وحدة موضوعية ، وتكشف عن علاقة تضاد بين الرسل وأقوامهم ، إذ تظل هذه البنية تخبر باسترجاعاتها المتكررة عن قصة رسول يبلغ رسالة ربه إلى قومه ، ويستدل على حقيقة ما أُرسل به إليهم بالبينات ، ثم تنطوي الأحداث فجاءة ، فلا نرى إلا نهاية مذهلة وهي تدمير الذين كذبوا بعذاب عظيم ، ونجاة النبي المرسل ومن امن معه . وهذا يتحقق كثيرا من خلال التمثلات القصصية التي تقع من بينها قصة النبي صالح (ع) . إذ تتحرك الأحداث سريعا في هذه القصة ، ثم تنتهي في كل مرة بأسلوب جديد . ومعلوم أن هذه القصة تشغل مساحة سردية تصل إلى أقصاها (١٨) آية في سورة الشعراء ، ثم تبدأ تقتصر على اقل من ذلك إذ تبلغ (٩) آيات في سورة النمل ، وبواقع (٨) آيات في سورتي هود والقمر ، ونجدها (٧) آيات في الأعراف، و (٦) آيات في الشمس ، حتى تصبح (٣) آيات في كل من الذاريات وفصلت ، ثم تجمل كليا بآية واحدة في الإسراء ، وفيها ما يدل على القصة رمزا .

يشير هذا التغيّر التنازلي في عدد الآيات التي تجمل أحداث القصة في كل مرة إلى أن هناك تحولا يطرأ على السرد بما يتلائم مع البداية وتصاعد الحدث الرئيس والنهاية ، وتصبح كل بنية نوعا من التمثلات التي ترد بما يتطلب المقام ، وتؤدي ما تؤديه القصص الكاملة في البنى الكبرى . أما الأنموذج النصي الذي نختاره لهذه القصة ، وفيه من التفاصيل ما يشكل نسقا رئيسا يجري عليه رصد التحول في البنى اللاحقة ما جاء في سورة الشعراء إذ تبدأ من الآية (١٤١) وانتهاءً بالآية (١٥٨) :

(كَذَّبَتْ ثَمُودُ الْمُرْسَلِينَ * إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صَالِحٌ أَلا تَتَّقُونَ * إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ * وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ * أَتُتْرَكُونَ فِي مَا هَاهُنَا آمِنِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ * وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ * وَتَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا فَارِهِينَ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ * وَلا تُطِيعُوا أَمْرَ الْمُسْرِفِينَالَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي الأَرْضِ وَلا يُصْلِحُونَ * قَالُوا إِنَّمَا أَنتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ * مَا أَنتَ إِلا بَشَرٌ مِّثْلُنَا فَأْتِ بِآيَةٍ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ قَالَ هَذِهِ نَاقَةٌ لَّهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ * وَلا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَظِيمٍ فَعَقَرُوهَا فَأَصْبَحُوا نَادِمِينَ فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ) .

التحولات :

السورة	البداية	الحدث الرئيس	النهاية
الشعراء **النسق الأساسي**	- **التكذيب (كذبت ثمود المرسلين) .** - **خطاب النبي صالح لقومه .** - **التبليغ بتقوى الله**	**فعقروها فأصبحوا نادمين)**	**(فأخذهم العذاب)**

	والتذكير برفاهية مكانهم . - جدلية الرفض . - عرض الناقة (الآية) .		
النمل ٤٥ – ٥٣	(ولقد أرسلنا إلى ثمود أخاهم صالحا) . - اختصام ثمود . - حوار .	وكروا مكرا ومكرنا مكرا وهم لا يشعرون)	(دمرناهم وقومهم أجمعين) (وأنجينا الذين امنوا وكانوا يتقون)
هود ٦١ – ٦٨	(والى ثمود أخاهم صالحا) . - استدلال بآلاء الله . - جدل الآخر . - عرض الناقة (الآية) .	فعقروها)	(بينا صالحا والذين امنوا معه) . (واخذ الذين ظلموا الصيحة فأصبحوا في دارهم جاثمين) .
القمر ٢٣ – ٣١	(كذبت ثمود بالنُذر) - جدلية الرفض والوعيد . - اتساع حركة الضمائر .	(إنا مرسلوا الناقة فتنة لهم) . فنادوا صاحبهم فتعاطى فعقر) .	(إنا أرسلنا عليهم صيحة واحدة فكانوا كهشيم المحتضر) .
الأعراف ٧٣ – ٧٩	(والى ثمود أخاهم صالحا) . - استدلال بآلاء الله . - استدلال بالناقة . - حوار المؤمنين والكافرين .	فعقروا الناقة وعتوا عن أمر ربهم) .	(فأخذتهم الرجفة فأصبحوا في دارهم جاثمين) .
الذاريات ٤٣ – ٤٥	(وفي ثمود إذ قيل لهم تمتّعوا حتى حين) .	(فعتوا عن أمر ربهم) .	(خذتهم الصاعقة وهم ينظرون) .

حققت هذه التمثلات من خلال استبدالها المتكرر قيما دلالية جديدة ، وهي ليست بدائل فحسب ، إنما هي توجيه بقصد التواصل ، وقد أكدت المضمون الحقيقي للمواقف والأحداث الواردة في النسق الأصلي لها . وعلى الرغم من تشابه البدايات (السرد التمهيدي) ، نجد هناك في كل بداية تنوعا للصيغ الجديدة للإبلاغ وما يستدعي من حوار ووصف للمكان ، مع فاعلية حركة عنصر الاستدلال ، وعلاقات الحضور والغياب . وفي كل مرة نجد الحدث الرئيس متصاعدا إلى القمة بلا سعة زمنية ، وقد تكرر بناؤه الموحّد ليؤكد عتو مجتمع ثمود عن أمر الله وتفرد أشقاها بعقر الناقة (اصل الحدث) ، فالأحداث تجري مسرعة وعلى التعقيب إلى (النهاية) التي تأخذ أشكالا في وصف العذاب الذي حل بهم ، وتنتظم على النحو الأتي :

- الشعراء : (فأخذهم العذاب) ، النمل : (إنا دمرناهم وقومهم أجمعين) ، هود : (واخذ الذين ظلموا الصيحة فأصبحوا في ديارهم جاثمين) ، القمر : (إنا أرسلنا عليهم صيحة فكانوا كهشيم المحتضر) ، الأعراف : (فأخذتهم الرجفة فأصبحوا في دارهم جاثمين) ، الذاريات : (فأخذتهم الصاعقة وهم ينظرون) .

هذه التبادلات في صيغ العذاب تؤكد اللامتناهي من عظمة الحدث ، ولذلك أخذت كل بنية جانبا منه لتستكمل من بعدها البنية الأخرى الصورة من جانب آخر ، وهكذا . وفي كل نهاية تكون هناك رحمة بنجاة النبي صالح (ع) والمؤمنين . ولو أعدنا قراءة الأحداث من جديد نجد أن (الناقة) هي العنصر الذي يستقطب الأحداث كلها ذلك إنها مركز القصلإلهي ، لكونها آية أمتد حنّت بها ثمود ، فكانت فتنة لهم وتخويفا وإنذارا لمن جاء بعدهم .

إن مبدأ (الاختيار) كان عاملا مهما في تنوّع الصيغ الدالة ، ويأتي بعد ذلك (الاسترجاع) ، وما يصحبه من حذف وهو المؤثر الأكبر فيما ندعوه (اقتصاد السرد) ، الذي تنتهي إليه دائما لغة الإعجاز في تمثلات القص ، لاسيما إذا كان هناك ما يشير إلى قوة الدلالة ، أي يُكتفى بدلالة الحال على الأشياء المحذوفة، وتترك النفس تجول في الأشياء المكتفية بالحال عن ذكرها [٥٣] . ومن دلائل الحذف في قصة صالح أيضا ، قوله تعالى : (**وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى فَأَخَذَتْهُمْ صَاعِقَةُ الْعَذَابِ الْهُونِ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ وَنَجَّيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ**) فصلت (١٧ – ١٨) . وبهذا التلويح الإشاري اللغوي يكون هناك أكثر من نص غائب ، ما عدا وضوح النهاية ، وما سبقها من إشارات دالة ، وكان البنية هنا تحث على الاستحضار الذهني للأحداث كما لو كانت كاملة .

ولو أخذنا قصة موسى ، وتبعناها بحرفية أحداثها ، وانتشارها السردي الواسع والمتحول ، نجدها تتكثف باقتصاد ، وتغني باكتفائها الدلالي الآتي عن ذكر سائرها :

وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَجَعَلْنَا مَعَهُ أَخَاهُ هَارُونَ وَزِيرًا * فَقُلْنَا اذْهَبَا إِلَى الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَدَمَّرْنَاهُمْ تَدْمِيرًا) الفرقان (٣٥ – ٣٦) .

لا يسمح مثل هذا النسق بتقدير أي شئ غائب لم يذكر فيه ، لكونه مكتفيا بذاته ومنتظما بإشارات دالة منها حضور النبيين المرسلين ، ويتصاعد هذا الحضور ليجمل القصة كلها في الأفعال : (اذهبا إلى القوم الذين كذبوا بآياتنا) ، ثم تحسم النهاية بصيغة مفاجئة غير معهودة من قبل : (فدمرناهم تدميرا) أي الاحاطة المهلكة بحياة من أرسل أليهم وبما كانوا ينعمون .

٢- **العلامات** (سيميائية الدال والمعنى) .

وعلى جهة اقتصاد السرد تبرز ظاهرة العلامات إذ تتحول القصة إلى بنية لفظية دالة ، وتشكل بعد ذلك نظاما سيميائيا أو تركيبات رمزية مصغرة ، يمكن الاستدلال بها على قصة كاملة ، لأنها تقيم معادلة دلالية بينها وبين النص الأصلي بكل تفاصيله ، مما لا تستطيع أي نظرية لسانية أو سيميائية أن تتمثله أو تتوقعه . وأمثلتها كثيرة تفتح بابا لدراسة أخرى متخصصة ، ومنها قوله تعالى :

(هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْجُنُودِ ۝ فِرْعَوْنَ وَثَمُودَ ۝ بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي تَكْذِيبٍ ۝ وَاللَّهُ مِن وَرَائِهِم مُّحِيطٌ) البروج (١٧ – ٢٠) .

فالجنود : العلامة الرمز للقوة والطغيان ، وقد فرضت علاقة بينها وبين (فرعون وثمود) وقامت مقامهما في توضيح دلالة الكفر والعلو في الأرض والتكذيب ، وكان هذا النمط من العلامات الرمز يعيد إلى الذاكرة بقوة قصتي موسى وصالح وما انتهت إليه كل منهما .

إن تعاملنا مع العلامة بوصفها " جزءاً أو مظهرا أو تجليا خارجيا لشئ لا يظهر بأكمله " [٥٤] لكنها تدل على المعنى المحمول بإشارتها إلى أحداث معلومة ، وبمعنى آخر أنها تلميحات أشارية إلى تفصيلات قد أضمرت كليا ، وإنما الذي يعيدها كلها ، أو جزءا منها ، هو التواصل والخبرات السابقة ، أما مجالها الوظيفي فهي في منتهى الغاية من التطمين والتذكير ، لذلك نجدها من خلال لغة الإعجاز تختزل مساحات السرد ، وتكثف الوسائل البلاغية الدالة . ومما يزيدها وضوحا وتواصلا واستمرارا أنها غالبا ما تعزز بمثل هذا الوصف السردي : (الفجر ٦ – ١٤)

(أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ * إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ * الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ * وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ *وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتَادِ * الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلَادِ * فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ * فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ * إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ) .

إن كل علامة هنا هي ضمن تركيب (مرمّز) ، يشير إلى أحداث مرويّة على التتابع في نصوص أخرى، لكنها تمثلت من جديد في (عاد) و (ثمود) و (فرعون) ، وانمازت بوصف تكميلي موجّه ، بمعنى أنها جاءت لتخبر عن عظمة العذاب الذي أنهى وجود أمم كانت اشد الناس قوة ، وامتلاكا لعجائب الحضارة في بلدانها ، وتماديا بالفساد . ويدل السياق على أنها قد وقعت اختيارا ومثلا للتشابه الذي يجمعها في المواقف والأحداث ، وهذا التشابه يقيم علاقة شديدة الصلة بينها جميعا وطرف آخر خفي وهو(قريش) ، فالماضي يتكرر ولا يختلف عن الحاضر في الموقف السلبي من رسالات السماء كلها ، وهذا هو القصد الوظيفي وراء تلك العلامات بأشكالها الدالة .

ومن ذلك أيضا ؛ حين : " تقوم العلامة على جدلية الحضور والغياب " [٥٥] مثال قوله تعالى : **وَجَاء فِرْعَوْنُ وَمَن قَبْلَهُ وَالْمُؤْتَفِكَاتُ بِالْخَاطِئَةِ * فَعَصَوْا رَسُولَ رَبِّهِمْ فَأَخَذَهُمْ أَخْذَةً رَّابِيَةً * إِنَّا لَمَّا طَغَى الْمَاء حَمَلْنَاكُمْ فِي الْجَارِيَةِ**) الحاقة (٩ – ١١) .

ثلاث علامات لغوية مرجعها ثلاث قصص ، كان لها امتداد غير قليل بتفصيلاتها في نصوص أخرى ، وقد غطت أحداثا طال بها الأمد في تاريخ البشرية قبل الميلاد ، فلقد أشارت العلامة الأولى(فرعون ومن قبله) إلى عصر لا يختلف عن عصر آخر دلت عليه العلامة الثانية (المؤتفكات) وهي : قرى قوم لوط [٥٦] ، بارتكاب المعاصي العظيمة ، وتجاوز إنذارات الرسل ، وكل كانت نهايته الدمار ، وأما العلامة الثالثة فتجمع إليها إشارتين: (طغى الماء) ، طوفان الأرض ، و (حملناكم بالجارية) ، نجاة ذرية من المؤمنين وأجناس الكائنات مع نوح في السفينة .

وهكذا تكون القصة القرآنية مجالا للتحول لا نهاية له ، تنبسط أحيانا في موقع وآخر ، ثم تقتصد بتمثلات دالة وموجهة ، حتى تصل إلى حيوية " العلامة " التي تطوي المضمون بلفظ دال ، لتقدم في مجملها وبعدها الوظيفي رؤية شاملة للعالم ، من خلال هذا التجسيم الأمين ، والمتكرر لحركة ذلك الصراع الفكري التاريخي ، بين قطبين متضادين ؛ هما : الأيمان – الكفر . وهي بهذا تكون قد تعاملت تزامنيا مع عقل الإنسان ، ونقض معتقداته في عصور الضلال ، بقدر ما تعاملت آنيا مع المحيط الاجتماعي والتاريخي الذي نزلت فيه ، وما زالت مستمرة في اختبار الواقع على أزمان الأرض ، بقصد دفع الإرادة البشرية إلى الاختيار الصحيح ، وصولا إلى الامتثال المطلق للخالق العظيم سبحانه وحده .

الهوامش :

(١) ينظر : نصوص النظرية البلاغية في القرنين الثالث والرابع للهجرة ، داود يلوم وعمر ملا حويش . بغداد ١٩٧٧ . ونظرية أبي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ في النقد الأدبي محمد بن عبد الغني المصري . عمان ١٩٨٧ .
(٢) البيان والتبيين ١٠٥/١ .
(٣) لسان العرب : (ردد) .
(٤) نفسه : (عود) .
(٥) السياق التداولي : أي علاقة النص بمستعمله سواء كان المتكلم او السامع او الفضاء الثقافي والمعرفي الذي يربط بينهما . نظرية النص ١٦٢ .
(٦) ينظر : الإيضاح في علوم البلاغة ٧٤ ، ٢٠١ .
(٧) البيان والتبيين ١/ ١٠٥ .
(٨) نفسه ١٠٤/١ .
(٩) ينظر : رسائل الجاحظ . تحقيق عبد السلام محمد هارون ، القاهرة ١٩٦٤ .
(١٠) البيان والتبيين ١/ ١٠٥ .
(١١) نفسه ١٠٤/١ .
(١٢) نفسه ١١٤/١ .
(١٣) مدخل إلى علم لغة النص ٣١ .
(١٤)عن البنيوية التوليدية ٤٥ .
(١٥) لسان العرب : (حَوَلَ) .
(١٦) الخطيئة و التكفير ٢٢١ .
(١٧) ينظر : المعجم الفلسفي ٢٩٥/١ .
(١٨) ظواهر إسلوبية في شعر بدوي الجبل ١ .
(١٩) البنى المولدة في الشعر الجاهلي ٦ .
(٢٠) نظرية النص ٣٦/٣٥ .
(٢١) ينظر : مناهج البحث اللغوي بين التراث والمعاصرة ١٩٦ .
(٢٢) ينظر : معجم المصطلحات العربية المعاصرة ٨٤ .
(٢٣) دلائل الإعجاز ١٧٣ – ٢٠١ .
(٢٤) أسرار البلاغة ٢ .
(٢٥) ينظر : إعجاز القران (الباقلاني) ٣٠٠ ، الجامع لإحكام القران (القرطبي) ٤٣/١ ، الشعرية العربية ٣٩ ، ٤١ ، نظرية النص ١٨٣ – ١٨٦ .
(٢٦) دلائل الإعجاز ٨ .
(٢٧) نفسه ٩ .
(٢٨) نظرية النص ١٩٦ .
(٢٩) مفهوم النص ٢٦ .
(٣٠) ينظر : سلطة النص ٣٦ – ٣٧ .
* يقول صلاح فضل : " إن متطلبات المتلقي ، تؤثر في تنظيم الخطاب " . بلاغة الخطاب وعلم النص ١٢٧ – ١٢٨ . وينظر : التلقي والتأويل ١٢٣ .
(٣١) البيان والتبيين ١/ ١٠٥ .
(٣٢) تفسير الكشاف ٣٣٦/٢ – ٣٣٧ .
(٣٣) النص القرآني من الجملة إلى العالم ١٧ – ١٨ .
(٣٤) ينظر : الشعر والشعراء ٧٤/١ – ٧٧ ، ونقد الشعر ١ ، ٢١ ، ٢٨ ، ٤٢ ، ٥١ .
(٣٥) نظرية النص ١٩١ .
(٣٦) ينظر : سلطة النص ٩١ – ٩٢ .
(٣٧) نفسه ١٠٥ .
(٣٨) نفسه ١٤٨ .
(٣٩) أسرار البلاغة ٣٣ .
(٤٠) تفسير الكشاف ٥٩٨/٤ .
(٤١) السيميائية وفلسفة اللغة ٢٤ .
(٤٢) الإيضاح في علوم البلاغة ١٧٩ .
(٤٣) نفسه .
(٤٤) ينظر : إعراب القران (الزجاج) ٣٤/١ – ٣٥ .

(٤٥) ينظر : أصول الخطاب النقدي الجديد ١٩ .
(٤٦) لسان العرب : (وَهَيَ) .
(٤٧) تفسير الكشاف ٤٥٠/٤ .
(٤٨) ينظر : أسرار البلاغة ٣٣ .
(٤٩) البرهان في علوم القران ١٠/٤ .
(٥٠) دلائل الإعجاز ٦٣ .
(٥١) البيان والتبيين ١٠٥/١ .
(٥٢) البنيوية وعلم الإشارة ١٣ – ١٤ .
(٥٣) ينظر : الإعجاز اللغوي في القصة القرآنية ٣٠٦ .
(٥٤) السيميائية وفلسفة اللغة ٤٧ .
(٥٥) نفسه ٦٣ .
(٥٦) تفسير الكشاف ٦٠٠/٤ .

المصادر والمراجع :

١. أسرار البلاغة ، عبد القاهر الجرجاني . دار الكتب العلمية ، بيروت ١٩٨٨ .
٢. أصول الخطاب النقدي الجديد ، تودوروف (وآخرون) . ترجمة احمد المديني . دار الشؤون الثقافية العامة ، بغداد ١٩٨٧ .
٣. إعجاز القران ، أبو بكر الباقلاني . تحقيق احمد صقر . دار المعارف بمصر ١٩٦٣ .
٤. الإعجاز اللغوي في القصة القرآنية ، محمود احمد السيد . القاهرة ١٩٨١ .
٥. إعراب القران (الزجاج) . تحقيق إبراهيم الابياري . القاهرة ١٩٦٤ .
٦. الإيضاح في علوم البلاغة ، الخطيب القزويني . ط ٢ . بيروت ١٩٩٢ .
٧. البرهان في علوم القران ، الزركشي . تحقيق أبو الفضل إبراهيم ، القاهرة ١٩٨٨ .
٨. بلاغة الخطاب وعلم النص ، صلاح فضل . دار المعرفة ، الكويت ١٩٩٢ .
٩. البنى المولدة في الشعر الجاهلي ، كمال أبو ديب . بغداد ١٩٨٨ .
١٠. البنيوية وعلم الإشارة ، ترنس هوكس . ترجمة مجيد الماشطة ، بغداد ١٩٨٦ .
١١. البيان والتبيين ، الجاحظ . تحقيق عبد السلام محمد هارون . ط ٥ . مكتبة الخانجي ، القاهرة ١٩٨٥ .
١٢. تفسير الكشاف ، الزمخشري . دار الكتاب العربي ، بيروت ١٩٤٧ ، وط دار الكتب العلمية ، بيروت ١٩٩٥ .
١٣. التلقي والتأويل ، مقاربة نسقية ، محمد مفتاح . المركز الثقافي العربي ، الدار البيضاء ١٩٩٤ .
١٤. الجامع لإحكام القران ، القرطبي . تحقيق سالم مصطفى البدري ، دار الكتب العلمية ، بيروت ٢٠٠٠ .
١٥. الخطيئة و التكفير ، عبدالله الغذامي . النادي الأدبي الثقافي، جدة ١٩٨٥ .
١٦. دلائل الإعجاز ، عبد القاهر الجرجاني . تحقيق محمود محمد شاكر . مكتبة الخانجي ، القاهرة ١٩٨٤ .
١٧. سلطة النص ، عبد الهادي عبد الرحمن . سينا للنشر ، بيروت ١٩٩٨ .
١٨. السيميائية وفلسفة اللغة ، امبرتو ايكو . ترجمة احمد الصمعي . المنظمة العربية للترجمة ، بيروت ٢٠٠٥ .
١٩. الشعر والشعراء ، ابن قتيبة . تحقيق احمد محمد شاكر . دار المعارف بمصر ١٩٦٦ .
٢٠. الشعرية العربية ، ادونيس (الحمد علي سعيد) . دار الآداب . بيروت ١٩٨٥ .
٢١. ظواهر إسلوبية في شعر بدوي الجبل ، عصام شرشح . اتحاد الكتاب العرب ، دمشق ٢٠٠٥ .
٢٢. عن البنيوية التوليدية (بحث) ، جابر عصفور . مجلة فصول ع ٢ ١٩٨١ .
٢٣. لسان العرب ، ابن منظور . دار صادر ، بيروت .
٢٤. مدخل إلى علم لغة النص ، الهام أبو غزالة وعلي خليل احمد . ط ٢ . الهيئة المصرية للكتاب ، القاهرة ١٩٩٩ .
٢٥. المعجم الفلسفي ، جميل اصليبا . دار الكتاب اللبناني ، بيروت ١٩٨٢ .
٢٦. معجم المصطلحات العربية المعاصرة ، سعيد علوش . بيروت ١٩٨٥ .
٢٧. مفهوم النص ، دراسة في علوم القران ، نصر حامد أبو زيد . الهيئة المصرية للكتاب ، القاهرة ١٩٩٠ .
٢٨. مناهج البحث اللغوي بين التراث والمعاصرة . نعمة رحيم العزاوي . مطبعة المجمع العلمي العراقي ، بغداد ٢٠٠١ .

٢٩. النص القرآني من الجملة إلى العالم ، وليد منير . القاهرة ١٩٩٧ .
٣٠. نقد الشعر ، قدامة بن جعفر . تحقيق كمال مصطفى ، مصر ١٩٤٨ .

The Quraanic reiteration in Al-Jaahedh's Thought (Systematic vision in the discourse Transformations)

Dr. Haider L. Mutlak*

* Arabic Dept. – the College of Education for Women – Baghdad University

Abstract:

This study aims to make roots to the theoretical thoughts presented by Aljaahedh about the reiteration in the Holly Quraan and using them as evidences for the achievements by presenting a contemporary term for the concept (Discourse Transformations) and discover an applied procedure depends on the analysis of the transformations of the language of the recite in the Holly Quraan with reference to the elements of: context, intention, and the text structure.

The transformation includes the types of the structure in which the (Judgment day) and (The Stories) is reiterated that has the ability to transform the basic context – Totally or partially – into new structures that permit the expansion of the meaning and multiples of functions within the activity of getting back, substitution and briefing reciting and with this results can be achieved.